الأرضة آفة المخطوطات والبنايات وخرافات حولها

عبدالله بن سعد الدريس
إدارة التربية والتعليم - بمحافظتي حوطة بني تميم والحريق

حقاً "الصغير لا يحقر في المخاصمة"، فالأرضة مهما احتقرتها العين الباصرة لصغر حجمها؛ فأثرها كبير جداً فيما تخلف من دمار في البنيان والممتلكات والمقتنيات النوادر، وذلك أن بين جنبيها الهلاميين قوةً عجيبة منحها إياها الخالق، وعزماً على الحياة لايني، ولا يفتر وسْطَ عمل دائب تلفه عباءة الصمت، ويسير بها في ممرات مظلمة رطبة ضمن مجتمعات منظمة كمملكة النحل.

عرفت باسم الأرضة؛ لأن عملها فيها، ومنها تنشأ وإليها تعود كما الخليقة جمعاء: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**﴾(١). وتعرف الأرضة في المعاجم اللغوية بالسُرفَة، وربما اختصت السرفة هذه بأكل الخشب فحسب، ولذا قيل: يعمل السَرَف في النشب ما يعمل السُرف في الخشب(٢)،

---

(١) سورة طه، الآية ٥٥.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، ج ٣ (السرف) ص٢١٦؛ السرف الأولى (التبذير)، والثانية جمع سُرَفة، والنشب: المال والعقار.

ونقل ابن منظور (ت ٧١١هـ) عدة مسميات لها، فقال: هي القَتَعَةُ والهرْنِصانةُ والحُطَيِّطةُ والبُطَيِّطةُ واليَسْرُوعُ والعَوانة والطُّحنَةُ(٣).

وعلمياً تعرف باسم: النمل الأبيض، وباسم (الترميت)(٤). وسمّاها القرآن الكريم دابة الأرض في قصة سليمان - عليه السلام - مع الجن حين أكلت عصاه (منسأته)، ويحدثنا القرآن عن أثرها وعملها الخفي عن بصر الجن وسمعهم: **﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾**(٥). وبإنقاذ الأرضة للجن ردت الجميل لها حيث جلبت الماء للأرضة في كل مكان ولو كان قاحلاً؛ إذ ترطب الأخشاب بالماء، فيسهل أكلها، وهذا أمر مشهور عند العوام، وإن تعجب من هذا فالعجب أن أصل هذا الاعتقاد المنتشر بين العوام في نجد قد ذكره ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) عند الآية الآنفة الذكر، فقال: "فشكرت الجن للأرضة، فكانت تأتيها بالماء"(٦).

وثبت علمياً بأن الأرضة تعيش على مادة الخشب، وهي من السيللوز، وتهضمها بواسطة حيوانات أولية في أمعائها، وتستخدم فضلاتها في بناء مملكتها(٧)، فسبحان **﴿الَّذِي أَعْطَىٰ**

---

(٣) لسان العرب لابن منظور، مادة "أرض".

(٤) الموسوعة العربية العالمية، حرف النون، مؤسسة سلطان بن عبدالعزيز آل سعود الخيرية.

(٥) سورة سبأ، الآية ١٤.

(٦) تفسير ابن كثير، ج٢ ص١١٩.

(٧) الفك المدمّر والعدو الصامت، مقالة في جريدة الرياض، الجمعة ١٨ جمادى الأولى، ١٤٢١هـ.

كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٨). وللأرضة مع الإنسان حكايات وذكريات قديمة وعريضة؛ فهي تأكل ولا تشبع، وتحفر بفكيها، وتلتهم معظم ما يصادفها، وتفسد، وتخرّب، وتمضي غير مبالية، تقضي على النفيس والثمين البعيد المنال والمطّلب المنيع الذي لا عوض منه إذا فقد، أو نيل منه، من جنس الأوراق والمخطوطات والنسخ القديمة، ولا غرو فقديماً قيل: آكل من أرضة!.

والإنسان يدفعها بكل ما أوتي من موانع ومصدات، ولا يقوى على مواجهتها لصغرها وسرعة فتكها، وليس ثمة نزال بينهما، فيشفى منها الغليل، أو يرضى بكفاءة من شجاعتها وبأسها؛ لكن ويالله العجب يعجز الطالب مع عقله وقوة فتكه، ويفوته المطلوب بيد مخلوق ضعيف مهين، وصدق الله العظيم: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٩).

ولئن ظهرت هذه الدويبة من خلال ما سبق عنصر هدم ودمار، فلقد سجلت أشرف المواقف وأزكاها مع خير البرية وخاتم النبيين ﷺ حين أكلت صحيفة المقاطعة الظالمة التي علقتها قريش في الكعبة، ووضعت فيها بنود المقاطعة المفروضة على المسلمين ومن ناصرهم من آل عبد المطلب، يقول ابن هشام في السيرة النبوية: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا

---

(٨) سورة طه، الآية ٥٠.

(٩) سورة الحج، الآية ٧٣.

أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم؛ فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها؟ وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرا(١٠).

ومماقاله عم النبي ﷺ أبوطالب في شأن الصحيفة شعراً(١١):

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة　　أتاك بها من عائب متعصّبِ
محا الله منها كفرهم وعقوقهم　　وما نقموا من صادق القول معربِ
فأصبح ماقالوا من الأمر باطلاً　　ومن يختلق ما ليس بالحق يكذبِ

ويقول أيضاً(١٢):

فيخبرهم أن الصحيفة مزِّقت　　وأنْ كلُّ ما لم يرضهِ الله مفسَدُ

ولما أخذ الصحابي أبي بن كعب رضي الله عنه الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ بعد هدم المسجد النبوي ظل معه في بيته حتى أكلته الأرضة، فعاد رفاتاً(١٣).

---

(١٠) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٣.

(١١) ديوان أبي طالب عم النبي ﷺ، جمعه وشرحه محمد التونجي، ص٢٦.

(١٢) المرجع نفسه، ص٣٣.

(١٣) سنن ابن ماجه، مسند أحمد، سنن الدارمي.

وكما أن لكل شيء آفة، فإن عدو الأرضة نمل أصغر منها يأتيها من خلفها فيحملها، ويمشي بها إلى جحره، وإذا أتاها مستقبلا لا يغلبها؛ لأنها تقاومه، وتظل بكامل قوتها ما دامت على الأرض إلا أن هلاكها في الجو، ولذا تقول العامة: (إذا ريّشت النملة فهو عند أجلها) وفي الأمثال الفصيحة: (إذا أراد الله هلاك النملة أنبت لها جناحين)(١٤)، وتكون هذه المرحلة مرحلة التزاوج، والسالم منها قليل، فمتى فارقت طبيعتها ومسماها فارقت الحياة، وحديثاً استطاع العلماء الاستفادة من السم الذي يفرزه بعض أنواع النمل واستعماله مبيداً للأرضة وخاصة أنه غير ملوّث للبيئة ورخيص الثمن.

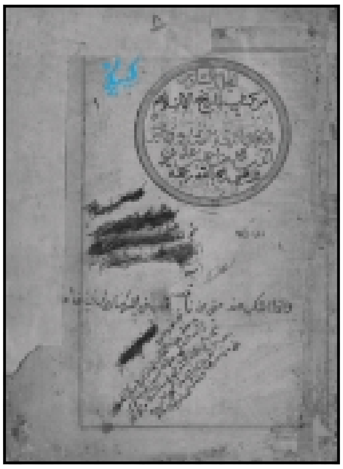

ومما يحكى حول الأرضة من تعاويذ وحمايات: ألفاظ كان يكتبها الناسخون أو مالكو النسخ على مخطوطاتهم ظناً منهم أنها تحميها من الأرضة، وتعد من تعويذ المخطوط وحماية له من الأرضة، ومن تلك الألفاظ:

١ - "كمعمق، زهزوق" أو "كبيكج"، كتبه ناسخ مخطوطة كليلة ودمنة في آخرها(١٥)، ولم أجد فيما اطلعت عليه من بين المخطوطات النجدية لفظتي "كمعمق، زهزوق" السابقتين مجتمعة على طرة المخطوط أو في

---

(١٤) الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب للجهيمان، ج١، ص٩٧.

(١٥) كليلة ودمنة لابن المقفع، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، ص١٤.

مكان منه، ولعل ذلك مرتبط ببعض الأماكن والبلدان كما ساد في عصر ابن المقفع (ت ١٤٥هـ) وما بعد، غير أنه وجد على غلاف المجلد السادس من تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ) بخط الشيخ سلمان بن عبدالله آل الشيخ (ت ١٢٣٣هـ) وعليه بعض التهميشات منها كبيكج، وطمس تحته وأسفله بيت شعر سائر. وهو من تملك الشيخ عثمان بن مزيد بن عمرو الحنبلي عام ١٢٣٦هـ(١٦)، وهي ضمن المنهي عنه لفظاً: يا كبيكج(١٧).

ولما سئل عنها فضيلة الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١هـ) عدّها من الرقى المنهي عنها، فقال: (مثل كتابة بعض المشايخ العجم على كتابهم لفظة "يا كبيكج" لحفظ الكتب من الأرضة زعموا. وللدكتور يوسف زيدان رأي آخر إذ يقول: اعتقد المشتغلون بالتراث أن هذه العبارة دُعاء من قبيل الخرافات التي كان القدماء يعتقدون بها كأن يكون هناك ملاك حارس للمخطوطات أو شيء من هذا الخرافي؛ لكن الحقيقة بخلاف ما يعتقده التراثيون.. ذلك أن كلمة "كبيكج" من الحيل الذكية لدى النساخ القدماء في حفظ المخطوطات النادرة، مثل: "يا كبيكج احفظ الورق" وكبيكج اسم نبات يشبه الكرفس البري، يسمى أيضاً: كف السبع، شجر الضفادع، عين الصفا.. وهو من السموم القتّالة، كان أطباؤنا القدامى

---

(١٦) مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، قسم المخطوطات، رقم ١٨٣٢.

(١٧) معجم المناهي اللفظية، د. بكر أبوزيد، مادة (كبيكج).

يعالجون به الأمراض الجلدية، وقد استخدم الوراقون قديما نبات كبيكج لحفظ المخطوطات من الحشرات.. وهي عملية تشبه ما نسميه اليوم (التبخير)، ولتمييز المخطوطة التي تم تبخيرها كان يكتب عليها: "يا كبيكج احفظ الورق"؛ لتكون علامة للمشتري أو مقتني المخطوطة، على أنها معالجة بهذا النوع من النبات(١٨). لكن ماذا عساكم تقولون في هذه الألفاظ الأخرى التي يدفع بها الأرضة "كمعمق، وزهزوق"، فهل تعد من النباتات ذات النفوذ الفاعل كما سبق؟!

٢ - من تعويذات المخطوط: كتابة "مارق احبس حبسا أو محبة فالله أعلمْ(١٩)، ولا أدري من مارق هذا المخاطب؟!

٣ - يقول الدُّميري في كتاب حياة الحيوان الكبرى (ت ٨٠٨هـ): إذا وضعت قطعة من جلد الأسد في صندوق ثياب لم يصبها السوس ولا الأرضة(٢٠)!

من أشد الآفات التي أصابت المكتبة العربية الإسلامية التآكل بسبب الأرضة

ومن أشد الآفات التي أصابت المكتبة العربية الإسلامية التآكل بسبب الأرضة، وذلك على أنواع: قسم حرق، وثان غرق، وآخر تآكل وخرق؛ أي من الكتب(٢١).

---

(١٨) د. يوسف زيدان، تعريفات أساسية ٢٠٠١م.

(١٩) فتح المغيث شرح ألفية السيوطي للسخاوي، ج٢، ص٢٠٩.

(٢٠) حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج١، ص١٣.

(٢١) كتب التراث بين الانحطاط والانبعاث د. حكمت ياسين، ص١٥.

وأما المكتبات الخاصة والعامة التي أكلت بعضها الأرضة، فمنها ما يلي:

أ - كتاب مصنف لعلي بن المديني (ت٢٣٤هـ) يقول عنه: صنفت المسند على الطرق مستقصى، وجعلته في قراطيس في قمطر كبير، ثم غبت عن البصرة ثلاث سنين، فرجعت وقد خالطته الأرضة، فصار طيناً، فلم أنشط بعد لجمعه(٢٢).

ب - جاء في رحلة المغرب العربي قول الشيخ حماد الأنصاري (ت ١٤١٨هـ) في مكتبة جامع القرويين في فاس ستة آلاف مخطوط، وبمكتبة الجامع الكبير بمكناس خمسمئة مخطوط، ولكن مع الأسف فجلُّ تلك المخطوطات متلاش غير صالح قد أكلت الأرضة كثيراً منها(٢٣).

٣ - مكتبة الشيخ محمد بن عبدالله بن محمد الفاخري (١١٨٦-١٢٧٧هـ) يقول ابن بسام: قد حصّل كتباً كثيرة بخطه الحسن، وله منقولات كثيرة في مختلف العلوم، وقد جمع كتباً من الأدعية النبوية، ولكن تلف بسبب الأرضة، ولم يبق منه إلا ورقات قليلة، وقد رأيتها بخطه.

٤ - مكتبة الشيخ عبدالله بن خلف بن دحيان في الكويت (١٢٩٢-١٣٤٩هـ) يقول ابن بسّام: بعد وفاته آلت مكتبته إلى ابن أخته الشيخ أحمد الخميس، وبعد وفاة

---

(٢٢) تهذيب التهذيب تراجم ورجال، ابن حَجَر العسقلاني، ج٤، ص٢٨٦.

(٢٣) رحلة المغرب العربي للشيخ حامد الأنصاري، ١٣٩٦/٩/٦هـ.

ابن أخته أهدى ورثته المخطوطات إلى مكتبة الأوقاف، وبقيت المطبوعات عندهم وقد ضاع كثير من المخطوطات خلال نقلها، وبعضها أكلته الأرضة مما يؤسف له، وتاريخ دخولها إلى مكتبة الأوقاف في ٢٢/٣/١٣٩٧هـ(٢٤).

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٨هـ السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

---

(٢٤) علماء نجد خلال ثمانية قرون لابن بسام، ج٤، ص١٠٤، ج٦، ص٢٤٧.